عراك فى معترك ...

أى معـــترك !

للأستاذ زكى طليمات

« نحن هنا عند استهلال تطور يستطيع أن يحدث تجديداً فى الحياة الأدبية ، أو قل يجلب ثروة إليها ، ولا يكون هذا الجلب وذلك التجديد إلا بعد نضال عنيف » .

هكذا ختم الأستاذ المستشرق « بروكلمن » دراسته لمسرحية « مفرق الطريق » للدكتور بشر فارس . وذلك فى الجزء الثالث من الكتاب الثالث لتاريخ الآداب العربية ، وهو الكتاب الذى وقفه المستشرق السابق الذكر للأدب العربى المستحدث .

وبهذا الحكم نفتتح ردنا على مقال الأستاذ محمد متولى الذى نشرته « الرسالة » فى عددها ٣٧٦ ، لنسكب فى واعيته أن « مفرق الطريق » عمل أدبى إذا جرى النزاع عليه ، فإنما هو يجرى فى معترك ... أى معترك !

وآية ما نقرره أن الحديث حول هذه المسرحية يمتد من جديد بعد أن طوينا مكرهين صفحة منه مع « ناقد أديب »[1] وأن المسرحية لا تبرح تشغل أذهان الأدباء ، إما عن إعجاب وتقدير ، وإما عن استغراب وبطء فهم

* * *

الأستاذ متولى فى مقاله المذكور يهدف إلى غرضين رئيسيين :

أولهما : أنه يريد أن يزيل الخصومة القائمة بين الدكتور بشر فارس والأستاذ الشاعر على محمود طه ، وهى خصومة أساسها — كما كتب عنها الأستاذ متولى نفسه فى مطلع مقاله المذكور — أن بشر فارس نقد شعر الثانى فاتهمه بالإغارة والسلخ من المتقدمين والمتأخرين ، فغضب الشاعر وانبرى يكيل له صاعاً بصاع ، فاتهمه بأنه أخذ فى كتابة مسرحيته « مفرق الطريق » من آراء وردت فى قصيدة « القمة الباردة » للأستاذ الكبير عباس محمود العقاد . فكان أن نصّب الأستاذ متولى نفسه قاضياً بين الخصمين ، على ما بين التهمتين من اختلاف فى الجوهر وملابسات الأحوال ، ليقضى بأن الخصمين شريفان ، وأن السرقة لم تقع من جانب واحد منهما ، ودعم رأيه هذا بأن الفن ليس « فكرة » ، وإنما هو « صورة » أولاً وأخيراً

والموقف كريم مهما كانت بواعثه ، ومهما بعدت أسبابه عن الموضوع الذى نحن فى صدده ، وهو تحديد قيمة هذه المسرحية من الناحيتين الفلسفية والفنية .

بيد أننا نعبر بالكرم لنقول إن بشر فارس ما كان فى حاجة إلى الحكم الذى قضى به الأستاذ متولى فيما له علاقة بالمسرحية ، لأن أحداً — حتى ولا « الناقد الأديب » — لم يزعم أن بشراً سرقها من كاتب مسرحى متقدم أو متأخر ، وإنما المسألة محصورة فيما إذا كان بشر قد استلهم فى كتابة مسرحيته هذه من الفيلسوف (كانت) التى تمت إليه قصيدة الأستاذ العقاد ، أو هو استوحى فلسفة (بيرجسون) .

* * *

وأما ما أورده الأستاذ متولى دعامة لحكمه هذا من أن الفن (صورة) وليس (فكرة) فأمر لم يغب عن ذهننا فيما سبق أن أجريناه فى حديثنا السابق ، بل سجلناه فى أسلوب أوضح وأدنى إلى الثقافة العربية[1] ، إذ قررنا « أن المعانى والفكر المتداولة أشياء يشترك فيها جميع الناس ، فهى دوّارة فى نفس الجاهل والسوقى ، والمتعلم والأديب ، وإنما العبرة بطرائق معالجتها ، وبالكسى التى تضفى عليها ، من حيث حسن التأليف ، وجودة

(١) « الرسالة » رقم : ٣٦٨ ، ٣٧٠ ، ٣٧٢ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ .

(١) الرسالة رقم ٣٧٠ صفحة ١٢٠٩ سطر ٢٦ العمود الثانى

التركيب والابتداع والنفس المبتكر الخلاق ، وهنا مجال التفاوت بإبراز الشخصية الكاملة المستقلة » .

ولم ندل بهـذا فى معرض الدفاع عن بشر فارس لأنه أغار على قصيدة الأستاذ العقاد فانتحل مذهبها الفلسفى لمسرحيته ، ولـكننا أوردناه لندفع زعماً آخر لا يدور حول المذاهب الفلسفية المرسومة وإنما يدور حول حقيقة من حقائق النفس البشرية التى هى عامة ومبذولة لـكل كاتب ، ألا وهى (الصراع بين العقل والشعور)

قررنا هذا المبدأ الذى له أصل عنـد نقاد العرب[1] والذى عليه نقاد الترب ، محاولين أن نضع له قيوداً خشية أن يصبح الأمر فوضى فتنتحل المعانى وتنتصب الصور

واقتصار الفن على (الصورة) أو (الشكل) كما يرى الأستاذ متولى ، لا يعنى أن يكون هناك فن رفيع وفن رخيص ، وفن أصيل مبتكر وفن متبع مقلد ، وشاعر يسرق وكاتب يعتمد . فالتسليم بأن المعانى والفكر المتداولة أشياء يشترك فيها الكتاب ، وبأن المتقدمين لم يتركوا شيئاً للمتأخرين ، كل هـذا وما يدخل فى معناه ، لم يحجز النقد عن أن يقيم الحدود بين الإغارة على المعانى وسلخها ونسخها وبين الاستلهام والتوليد والاستيحاء والتخريج .

* * *

أما الغرض الثانى من مقال الأستاذ متولى ، فنقد مسرحية (مفرق الطريق) . وفى هذا المجال وثب الأستاذ متولى وثبة نقول إن الترفيق لم يحالفه فيها كما سنبين :

أراد الأستاذ متولى أن يحدد (الناحية الفنية) للمسرحية ، فإذا به يتحدث فى غير ذلك ، ذلك أن المعنى المباشر (للناحية الفنية) لمسرحية ما ، هو خضوعها لشرائط الفن المقطوع بها ، من حيث مراعاة بلاغة العرض لحوادثها وجودة الحبك لمشاهدها ، وبراعة الحوار ولطفه ، وعمق التفكير وانسيابه إلى أعماق النفس يكشف عن خفاياها . . . الخ . ولـكننا لم نطالع شيئاً من هذا فى مقال الأستاذ متولى ، بل طالعنا آراء تتطوح بين علم النفس وعلم الجمال ، والعلمان من صميم الفلسفة ، وإذا بالأستاذ متولى الذى نمت حديثنا عن الفيلسوفين (كانت) و (بيرجسون) « بالتفلسف » يكتب فصلاً فى الفلسفة — ونأبى أن نقول على غراره : فى « التفلسف » — وإذا بأسماء (ريبو) و (بيكون) وغيرهما تجرى مجنحة مطلقة العنان ، مما يدل على أن الأستاذ متولى أراد « بفنية المسرحية » أمراً غير ما يدل عليه المعنى المتداول المصطلح عليه لدى رجال المسرح ، إذ هو يريد بها ، ولا شك ، « الناحية الرمزية الفنية » للرواية ، يأتى بهذا اللبس فى فصل من القول يجب أن يكون قائماً على الدقة والإحكام .

* * *

والنقد الذى أراده الأستاذ متولى لمسرحية (مفرق الطريق) ، هو للمقدمة أكثر منه للمسرحية ، هذا فى حين أن « المقدمة » أمر عارض ، لأنه غير المسرحية التى هى مناط القول فى الجدل . وما أحسب أن بشراً كان يتجشم كتابتها متبطحاً لولا حرصه على أن يقرب المسرحية إلى أذهان القراء ويسر لهم أمر استيعابها وهى حدث جديد فى التأليف المسرحى المصرى

وعلى اعتبار أن « المقدمة » هى العنصر الأول ، كما يتعمد أن يراها متولى ، لينتقصها ثم ينفذ من هـذا إلى انتقاص قدر المسرحية نفسها ، فأين الأخطاء التى وقع فيها كاتبها ، وما هى مزالق الكلام فيها ؟

لا أخطاء ولا مزالق كلام ، وإنما هو تعسف وعنت من جانب الأستاذ متولى ، ومرد هـذا كله أن فكرته عن الرمزية محدودة ضيقة ، إذ هو يريد أن يخضع كل ما يؤلف فى الرمزية لما وجده عند (ريبو Ribot) فقط ، و (ريبو) هو واحد ممن كتبوا فى الرمزية وعلم النفس ، وواحد ممن

(١) كتاب (العمدة) لابن رشيق ، و (المثل السائر) لابن الأثير (والصناعتين) لأبى هلال العسكرى

أسقطت الآراء الفلسفية الحديثة أكثر ما ذهب إليه فيهما ، كما سنشرح هذا

ويؤسفنا أن نقرر ، لو أن الأستاذ متولى ، وهو الذي يحمل شهادة ماجستير للفلسفة ، تعقب المراحل الحديثة التي مر بها علم النفس بعد العهد الذى ألف فيه (ريبو) كتابه (المخيلة الخلاقة imagination créatrice) الذى هو عمدته فى النقد ، أى بعد عام ١٩٠٠ ، لعرف أن علم النفس الذى أفادت منه الرمزية كثيراً قد دخل فى طور جديد تبدلت على أثره أوضاع فى الأدب عامة ، وفى الرمزية خاصة ، كما تشهد بذلك مسرحيات (بيراندللو) ، (جيرودو) ، (جانتيوم) ، وأن الرمزية المستحدثة أصبح مدارها خفايا النفس وبواطن الأشياء ، وهو ما عبر عنه بشر فارس فى مقدمته : « استنباط ما وراء الحس من المحسوس . . . الخ »

وقبل أن ننتقل من هذا نود أن يقف القارىء على آراء علماء اليوم[1] فيما كتبه (ريبو) خاصاً بالمخيلة التى هى أساس فى كتابه المذكور ، وذلك كما وردت فى مؤلف كبير يدرس اليوم فى جامعة السربون بباريس ، وضمه جمهرة من علماء فرنسا :

« يلوح لنا أن علم النفس عند (ريبو) فى مسائل المخيلة والاختراع لا يزال تحت تأثير النظرية الآلية البسيطة الخاصة بتجزؤ الذهن إلى ذرات متجاورة » ، ومن ذلك نرى أن حديث (ريبو) عن المخيلة فى جميع العناصر المختلفة ، قد أصبح موضع نظر ، بعد أن بيّن الفيلسوف الأمريكى المعاصر (وليم جيمس) وغيره ، أن مجرى الضمير متصل متلاحق من حيث إنه حقيقة متحركة ، ومن حيث إن الفكر فى تطور دائم . وكذلك قرر (بيرجسون) الفيلسوف الفرنسى المعاصر ، أن الحياة النفسانية اندفاع وابتداع فى زمن متصل الحركات .

(البقية فى العدد القادم)

زكى طليمات

(١) كما جاء في كتاب مطول من علم النفس Traité de Psychologie لجورج دوماس ، طبعة مارس ١٩٢٤ . الجزء الثانى ص ٤٤١

أزهى عصور العرب والتاريخ تخلدها

دنانـــير

أعظم إنتـــاج فى عالم الشرق

تتجلى فيها عبقرية أم كلثـــوم تمثيـــلا وغنـــاء

مع أقوى مجموعة من الممثلين

٤ حـفلات يومياً احجزوا تذاكركم من الآن

بسينما ســـتوديو مصر

إخراج أحمد بدرخان — إنتاج شركة أفلام الشرق — توزيع منتخبات بهنا فيلم